الكتابة معاناة

نصر الدين دلاوي
المركز الجامعي معسكر

تعتبر الكتابة سلوكاً إنسانيًا خالصًا وظاهرة بشرية محضة لا ينازع الإنسان فيها كائن آخر أو مخلوق.وقد مارسها الإنسان منذ القدم،في الكهوف والمغارات وفي العراء والفضاءات، على أوراق الشجر وعلى الأحجار والألواح وعلى الجدران والبنايات. وارتبطت،منذ تلك الفترة البعيدة،بوعيه1 الأوّل بذاته2 وبالكون3 والعالم4 وبطبيعة احتكاكه بالأشياء مِن حوله.

وإن أوّل وصف بارز في الكتابة و أكبر قيمة5 لصيقة بها هي المعاناة.و لقد أساء إلى الكتابة كثيرًا وشوّهَ مُحيَّاها طوائف من المثقّفين والمتعلّمين حين أفرغوها من كلّ معاناة فأصبحت،عندهم، عملاً هيّنًا بسيطًا يمارسونها كما يمارسون بعض الوظائف الحيوية أو الهوايات. وإنه ليكفي متابعة ما يُسجَّل في أغلب الصحف والمجلاّت وما يُسطَّر في بعض الكتب والأسفار ليَستَيقن المرء أن الكتابة،في هذه الأيام، بَهَت لونها وهان شأنها وزال تأثيرها حين تصدَّى لها أصناف من الناس يفتقرون إلى الوسائل وتُعوزهم الأدوات ولا يَحُوزون القدرة على الوفاء بأكبر مقتضيات الكتابة ألا وهي المعاناة. وبسبب هذه الأصناف المزدحمة عند باب الكتابة، زُورًا وادِّعاءً، أو نتيجةً لجرأتهم استحالت الكتابة موتًا و موائا بدلاً من أن تكون بعثًا وحياةً ونشورًا.

وليس المقصود بهذه العبارة، البتّة، ضرب حصار على الكتابة أو حرمان أيّ جهة أو شخص من ممارسة الكتابة أو التدرّب عليها و لكنّما المقصود،فقط، هو إبراز ماهية6 الكتابة والتأكيد على أولى خصائصها حتى لا تَستحيل لعبة يَتلهّى بها الكسالى الخاملون أو نزهة يَتمطّى فيها العُطّل الفارغون.

كلاّ.كلاّ.ليست الكتابة لعبة كما يعتقدون وليست نزهة أو فُسحة كما يظنّونَ.إن الكتابة معاناة. وأكاد أجزم أن المعاناة لا تظهر في شيء كما تظهر في الكتابة.

إن الكتابة معاناة في الظاهر والباطن: معاناة في الألفاظ والكلمات وفي الجمل والعبارات وفي الإطار والأشكال.ومعاناة في المعاني والمضامين وفي اللّطائف والأبعاد والإيحاءات.و معاناة في النظم والترتيب والجمع والتنسيق. إن المعاناة حاضرة في كلّ مراحل الكتابة: في أوّلها وفي وسطها، في مبدئها وفي مُنتهاها. وهي كذلك حاضرة في منعطفاتها ومنحنياتها و في زواياها وثناياها وفي لُحمتها و سداها.

وإن هذه المعاناة لحاضرة،فضلاً عن ذلك كلّه ،في مجموع الظروف النفسية التي ترافق عملية الكتابة وتتلبّس بها وفي حالات المزاج المختلفة التي تتخلّلها وفي لحظات التأمّل7 و الاستبطان8 التي تغشاها كما هي حاضرة في ذلك المزيج الحادّ من عواطف اللّذة والألم والسّأم والملل والشكّ واليقين والقدرة والعجز والبسط والقبض والتدفّق والنّضوب والاندفاع والتريّث والإقبال والإدبار والسموّ والدنوّ... بل إن حضورها ليمتدّ، أحيانًا، عند بعض الكاتبين الكبار ويتعاظم ويستطيل فيصاحبهم حينًا بعد فترة الكتابة والإبداع و يغشاهم آناءً بعد التسطير والنهاية و التمام.

وقد ذكر سارتر9 أن الكاتب ليس «بكاتب لأنه اختار التحدث عن بعض أشياء بل لأنه تحدّث عنها بطريقة معيّنة ».و هذه الطريقة المعيّنة التي يعنيها سارتر هي الأسلوب ووسائل الأداء الفني المختلفة ولكن يغيب عن وعي كثير من الكاتبين أن هذه الطريقة هي أيضًا وليدة المعاناة إذ المعاناة هي التي تنشئها والمعاناة هي التي تصهرها.

وكلّما كانت المعاناة كبيرة استنفدت طاقات الكاتب واستهلكت عُصارته واختلطت بدمه وأعصابه وحينئذ،فقط، تفوز هذه الكتابة بالخلود وتحظى بالدّوام

والامتداد فتسكن القلوب والعقول قبل أن تسكن الغيب والمستقبل وحياة الأجيال. أما تلك الكتابة التي وُلدت باردة هامدة جامدة لأنها لم تُصهر في بَوتقة المعاناة فإن أحدًا من الناس لا يَأويها ولا هي تجد من يحتضنها ويتبنّاها لأنها وُلدت ميّتة و الناس لا يتبنَّوْن الأموات.

و يُسلمنا الحديث عن المعاناة و حضورها المهيمن في عملية الكتابة إلى الحديث عن حضور آخر ذي فاعلية10 ووزن و اعتبار وهو الوعي الذي يشرف على هذه العملية في كافة مراحلها وأطوارها تقريبًا.

ولقد شاءت بعض المذاهب الأدبية والتيارات، كالسّوريالية11، محاربة عنصر الوعي في الكتابة فأذاعت، في بعض الأذهان، أن الكتابة ليست دائمًا لحظات من الوعي متصلة بل إنها،جُلّها أو كلّها، قد يَندّ عن سلطان الوعي وقد يتخلّص من هيمنته وحينئذٍ يكون اللاّوعي12، واللاّوعي وحده ، هو مصدر العطاء وهو مصدر التدفق والثراء. ويبلغ الشّطط بهذا المذهب مَبلغه حين يُهيب بالكتّاب والفنانين إلى إنكار واقع الحياة الواعية والتحلّل منه بحجة أن هناك واقعًا آخرَ أقوى فاعلية وأعظم امتدادًا هو عالم اللاّوعي وهو يدعو صراحة إلى إسقاط العالم الخارجيّ الذي يطغى على حرية الأفراد والتخلّي عنه نهائيًا.

والحقّ أن هذه الفكرة مَحُوجة إلى وقفة وتأمّل واستبصار لأن فيها غير قليل من الخلط واللّبس والخطوط التالية تتولّى مهمة هذه الإضاءة و البيان.

وأحبّ أن أُعلن،ابتداءً، أني لن أتوسع كثيرًا في هذا الموضوع لأن له علاقة بموضوع آخر كبير هو تفسير عملية الإبداع الفنّي والنشاط الجماليّ الذي تتدخل فيه عوامل كثيرة ليس الوعي إلاّ واحدًا منها. وهذا الموضوع الكبير قد تولّت شرحه وتفسيره نظريات مختلفة تُطلب في مظانّها ولست معنيًّا، في هذا المقام، بالوقوف عنده لأنه يوشك أن يَصرفنا عن موضوع هذا العرض الأساسيّ وهو الكتابة والمعاناة. ولكنّ هذا الانصراف لا يمنعني أن أمسّ طرفًا منه، في هذا المقام، مسًّا خفيفًا يتساوق مع هذا العرض ويخدمه ويُجاريه ولا يجني عليه.

هل يستمدّ الكاتب مادته من الوعي أو من منطقة ما وراء الوعي ؟

يجيب سيد قطب13 بأن الشعر يستمد معظم مؤثراته و انفعالاته من اللاّوعي وإنما تبدأ مرحلة الوعي أو يبدأ عمل الوعي «عند مرحلة النظم التي لا بدّ فيها من اختيار ألفاظ خاصة تعبر عن معاني خاصة وتنسيقها على نحو معين لتنشيء وزنًا معيّنًا وقافية معيّنة». ولكنه يضيف بأنه في الحالات الشعورية الفائقة التي تمتاز بشدة التأثر وقوة الانفعال قد تتم عملية النظم ذاتها بلا وعي وفي هذه الحالة يتولّى هذا الانفعال الشديد استدعاء الألفاظ والعبارات بطريقة تلقائية وهذه هي أجمل لحظات الشعر14.

وقد أكد سيد قطب15،كذلك، وجود هذه الحالة الخاصة حين أثبت أن هذا الانفعال قد يبلغ أحيانًا درجة من التوهّج والإشراق بحيث يغمر إحساس الأديب ويُدخله في شبه نَشوة أو في شبه غيبوبة فيكون التعبير حينئذ بنصف وَعْي فتجيء الألفاظ والعبارات تَتْرَى متناسقة متناغمة كأنها منقادة مأمورة.و قد يَعجب الشاعر حين يعود إلى اتّزانه، أو حين يعود إليه اتزانه، كيف انْثالَتْ عليه هذه الألفاظ والعبارات انْثِيالاً وكيف واتَتْه القدرة على صَوغها وقد يقف أمام بعضها مشدوهًا كأنْ لم يشهدها من قبل. ويخلص إلى القول بأن حالات اللاّوعي قليلة في حياة الأديب وأنه في أحواله الغالبة يكون في حالة صَحْو كامل مستمتعًا بقسط كبير من الوعي والمعاناة والاختيار16.

ونجد،عند،آرنولد هاوزر17، إبطالاً للزعم القائل بأن عملية الخلق الفني إنما هي استحواذ على مادة معيّنة باللّجوء إلى المنهج اللاّشعوري ثم مراجعتها و تنقيحها و تصفيتها عن طريق المعالجة الشعورية.و يضيف بأنه لا وجود لانفصام،قطّ، بين مساهمات العقل الواعي واللاّشعور18 في عملية الخلق الفني و أن الذي يميّز الخطوات المتلاحقة للعمل الفني ليس هو الانتقال من مرحلة إلى أخرى بل التغيّر الدائم في البؤرة إذ «ربما جاءت الفكرة الأولى لأثر فنّي نتيجة لجهد عمديّ مقصود بَيد أن ذلك لا ينفي أن يشمل اللّمسة الأخيرة

في الأثر الفني عناصر لا شعورية مثل اكتشافه (...) لعلاقات غير منتظرة أو حلول عفوية طارئة »19.

و يخلص آرنولد هاوزر20 إلى القول بأن الاعتقاد بأن الخلق الفنّي ربما توالد في اللاّشعور لا يعني البتة أنه تلقائيّ صرف لأن الحدس21 أو الإلهام22 أو تلك الرؤيا المنبثقة فجأةً أو تلك الأفكار التي لم تكن في الحسبان أو ذلك الابتكار الذي يبدو تلقائيًا في ظاهره...كلّ أولئك لا يعدو أن يكون « نتيجة لإعداد طويل و إن كان هذا الإعداد لا شعوريّ الطابع أو غير محقَّق أو مُنمحيًا و الحقّ أن الحظّ لا يواتي إلاّ النفوس التي تهيّأت له .23«

وفهم الكتابة على أنها لحظات من اللاّوعي متّصلة أو الاعتقاد بأن اللاّوعي هو انقطاع الكاتب أو الفنان عن عالمه هو الذي دفع السّرياليين إلى استحداث الكتابة الأتوماتيكية أو الكتابة الآلية وهي الكتابة التي يتصدّى لها الكاتب « ذهنه منصرف إلى ما ينبغي كتابته أيْ إلى المحتوى وليس إلى الكتابة نفسها أوهي الكتابة التي يكتبها المرء دون وعي منه بما يكتب»24. وقد أدّى بهم تعلّقهم بعالم اللاّوعي وفتنتهم بهذا النوع من الكتابة إلى تبنّي الوسائل المصطنعة «كالأفيون و غيره لإطلاق المكبوت في النفس ثم عندما يحاولون تسجيل هذا المكبوت في لوحات أو قصص أو مسرحيات غامضة مضطربة أو هاذية قد لا يدركون هم أنفسهم لها معنىً ولا يجدون هدفًا وهي بالرّموز والأحاجيّ أشبه منها بالأدب أو الفن مهما حاولوا أن يجعلوا من هذه الحمىً مذهبًا أدبيًا أو فنيًا...» 25.

يحصل عندنا،بعد هذا الاستطراد الخفيف، أن نصيب الوعي في الكتابة نصيب مهيمن ذو اعتبار و أن ظاهرة الوعي ذات حضور واقتدار. والذي نستفيده، كذلك، من هذه السياحة القصيرة بين النصوص أن الكتابة لحظات وعي وإرادة وإدراك وأن الكاتب أو الفنان ليس «مُغيًبا» أو «مُخدّرًا» أثناء عملية الإنتاج والإبداع ولكنّ الذي تُفيده هذه

النصوص،أيضًا، أن هناك لحظات خاصّة يعيشها الفنان قد تجيئه «السُّقيا» من منطقة ما وراء الوعي واللاّشعور ولكن ليس على مذهب السّرياليين وطريقتهم في الكتابة الأتوماتيكية التي مرّ بيانها.

فإذا تأكد لنا،بعد هذا العرض ،أن الكتابة معاناة وأنها لحظات من الوعي والصَّحْو والإرادة والحضور وليست أوَانَ غَيْبوبة أو انقطاع عن العالم وشرود وإذا جاز لنا أن نُعدّل قليلاً في الكوجيطو26 الديكارتي فإننا نستطيع أن نردد هاتفين: أنا أكتب إذن أنا موجود.

الهوامش و التعليقات

1-الوعي:سيكولوجيًّا هو إدراك الإنسان لذاته و أحواله و أفعاله إدراكًا مباشرًا و هو أساس كل معرفة.و انظر جميل صليبا- المعجم الفلسفي ص 215 .

2-الذات:ما به الشعور و التفكير فتقف الذات على الواقع و توجد الصور الذهنية و تقابل العالم الخارجي.و قد يقصد بالذات الماهية بمعنى ما به الشيء هو هو و يقابله حينئذ الوجود.ويشيع إطلاق مصطلح الذات،في العصر الحديث،على الإنسان الإيجابيّ المتمتع بالإرادة و الوعي.و انظر الجرجاني- التعريفات ص 112 و جميل صليبا- المعجم الفلسفي ص 216 و م.روزنتال و ب.يودين- الموسوعة الفلسفية 1/ 579.

3-الكون:يطلقه المتكلّمون على الوجود العام المطلق.انظر الجرجاني- التعريفات ص 197 و المعجم الفلسفي ص 156.

4- العالم: هو كل ما سوى الله تعالى من الموجودات.انظر التعريفات ص 149 و المعجم الفلسفي ص 115.

5- القيمة: كالحق و الخير و الجمال هي صفة عينية كامنة في طبيعة الأقوال (في المعرفة) أو الأفعال (في الأخلاق) أو الأشياء (في الفنون).و تطلق على ما يتميز به الشيء من صفات و خصائص تجعله مستحقًّا للعناية و التقدير.و قد تكون القيمة صفة يخلعها العقل على الأقوال و الأفعال و الأشياء طبقاً للأحوال و الملابسات و هي حينئذ تختلف باختلاف من يصدر الحكم فتكون موضع اهتمام و استحسان و مَيل لأنها قد اكتسبت طابعًا شخصيًّا ذاتيًّا و هي في كلّ في كل الأحوال وسيلة لتحقيق غاية. و انظر جميل صليبا-المعجم الفلسفي2/ 212-214.

6- الماهية:عند الجرجاني في التعريفات ص 205« ماهية الشيء ما به الشيء هو هو وهي من حيث هي هي لا موجودة ولا معدومة و لا كلّي و لا جزئيّ ولا خاصّ و لا عامّ » أو هي الخصائص الذاتية لموضوع معيّن وتقابل الوجود وهو نوع من الحضور الفعليّ في العالم.وانظر المعجم الفلسفي ص87 ولمجموعة من المؤلفين- معنى الوجودية ص 31.

7- التأمّل: هو التفكير العميق أو انشغال الذهن بموضوع تفكيره إلى حدّ يجعله غافلا عما حوله أو عن أحوال نفسه. و انظر المعجم الفلسفي ص 37

8-الاستبطان: هو التأمل الباطني الذي يقع على ما يحدث في عالم الشعور.و انظر المعجم الفلسفي ص 10

9- ما الأدب ؟ ص 21

10-الفاعلية: هي وصف لكلّ هو ما فاعل.و الفاعل هو ما له قدرة على الفعل و يقابل المنفعل و هو الذي لا قدرة له على الفعل.و انظر المعجم الفلسفي ص 137 .

11- السّوريالية:(أو ما فوق الواقع):مذهب أدبي و فنّي و سياسيّ نشأ بعد الحرب العالمية الأولى.كان يستهدف إعادة النظر و التجديد في كل القيم و هو ردّ فعل قويّ على الحضارة الغربية التي قامت الدلائل على همجيتها و وحشيتها. فقد عاش روّاد هذا المذهب ويلات هذه الحرب التي حطمت كل القيم بما فيها الإنسان فشرعوا يصنعون لمجتمعهم قيمًا جديدة معتمدين في ذلك على الجمع بين متناقضين:الفرويدية و الماركسية..و مهمة الفنان،عند السّرياليين، هي أن يقدم ما يعادل الواقع الخارجيّ لا ما يشبهه و ذلك بالعودة إلى اللاّشعور و الانطواء في الواقع الباطني و الحياة فيه.و العمل الفني « المبرَّر » عند السّريالية هو الذي يساهم في تغيير الواقع و الحياة اليومية و ذلك بالامتناع عن التضحية بقدرات الفنان الخلاّقة و تسخيرها في وصف العالم الخارجيّ.وقد دفعهم ذلك إلى تبنّي طرائق التحليل النفسيّ و اعتماد بعض مصادره للكشف عن خبايا اللاّشعور كالأحلام و الرموز و الدلالات الجنسية.وتبنىّ السّريالية الأحلام و اللاّوعي لإعادة « البراءة » لهذا الإنسان الذي يتعرض دومًا لاعتداءات العالم الخارجيّ بل إنها لتتبنىّ الجنون و تعتبره امتدادًا للحلم الذي يتعلق به«المريض» للهروب من ضغط الواقع الجائر...وقد مسّ الإنتاج السّريالي كل قطاعات الفن:الأدب و الرسم و النحت...و من أعضاء هذا المذهب البارزين:

Max Ernst، Salvador Dali، Louis Aragon،André Breton

و انظر كل ما يتعلق بالمذهب في : La Grande Encyclopédie: 18/11522

12- اللاّوعي (اللاّشعور): و هو أحد المراتب النفسية التي حددها فرويد و التي تؤلف النظام النفسيّ و هي مزيج من العواطف و الرغبات و الأحاسيس و الذكريات المكبوتة و التي و قع عليها حظر حتى لا تدخل منطقة الشعور أو الوعي.و انظر يوسف الصدّيق -المفاهيم و الألفاظ في الفلسفة الحديثة ص 122.

13- كتب و شخصيات ص 44

14- انظر المصدر السابق ص 44-45

15-انظر النقد الأدبي أصوله و مناهجه ص 36 و كتب و شخصيات ص 45

16- انظر النقد الأدبي ص 37

17- انظر فلسفة تاريخ الفن ص 101-102

18- اللاّشعور هو اللاّوعي و قد تقدم بيانه.

19- آرنولد هاوزر- فلسفة تاريخ الفن ص 101

20- انظر المصدر السابق ص 101

21- الحدس: هو الإدراك المباشر لموضوع التفكير أو هو المعرفة التي يحصل عليها الإنسان من دون إعمال نظر أو استدلال و هو حينئذ يكون شبيه الإلهام.انظر المعجم الفلسفي:69-70 و جميل صليبا-المعجم الفلسفي:1/ 453 .

22-الإلهام:يقول الجرجاني في التعريفات ص 35«هو ما وقع في القلب من علم و هو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية و لا نظر في حجّة و هو ليس بحجّة عند العلماء إلاّ عند الصوفيين».و الإلهام بهذا المعنى ليس وسيلة عامة لتحصيل العلم و لكن هو أشبه بالكشف الباطني الذي يحصل للإنسان في حق نفسه.انظر جميل صليبا-المعجم الفلسفي1/ 130-131

23- آرنولد هاوزر- فلسفة تاريخ الفن ص 102

24- عبد المنعم الحفني- موسوعة علم النفس و التحليل النفسي ص 83

25- محمد مندور- الأدب و مذاهبه ص 136

26-الكوجيطو:هو تصريف فعل(فكّر) باللاتينية في المضارع و قد تُرجم في العربية و الفرنسية: (أنا أفكر).و هذه الصيغة تُحدث إشكالاً لأن « أنا » كذات مفكّرة هي عند ديكارت (1596-1650) فاعل مستقلّ لا ضمير. ويمكن التعديل في هذه الصيغة بما يوافق فلسفة ديكارت فتصبح هكذا: «(أنا) يفكر إذن أنا موجود». COGITO ERGO SUM. و بهذا المبدأ أثبت ديكارت وجود الأنا ككائن مفكّر و وجود النفس كجوهر مفكّر.و يتولّى الكوجيطو تخليص الذات من كلّ ما حصل لها علمُه بالتربية و العادة و البيئة التي جعلها ديكارت محلّ شكّ منهجيّ و شكّ مطلق لاعتقاده أنّ لا شيء متيقّن منها و أن إمكانية الخطأ قائمة فيها.و انظر يوسف الصدّيق - المفاهيم و الألفاظ في الفلسفة الحديثة ص 57-58 و المعجم الفلسفي ص 156.